

مقدمة

كانت الثقافة ولا تزال إحدى حوائط الصد القوية في مواجهة القوى الظلامية التي تتربص بالأمة ، وكان المثقفون بفكرهم التنويرى أشرعة لاجتياز لجة التخلف إلى شواطئ العدل والحرية والقيم الإنسانية الرفيعة ، لكن ما بين الحين والآخر يطل ذلك الوجه الظلامى ليصادر الإبداع من خلال منظوره الضيق متذرعاً بتأويلات واهية وادعاءات لا تملك من المصادقية شيئاً .

وربما تعود سطوة هذا الاتجاه إلى البنية الاجتماعية التي تميل إلى المسالمة والدعة ، ويكون يقينها الدائم هو المسلمات وأخواتها فهذا المجتمع عنده قدر كاف من الاستعداد للكبت والقهر ومصادرة الأفكار ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن هناك مسئولية كبرى على الثقافة التنويرية التي انغلقت على نفسها وجاءت فى أطر فردية تفتقد فى معظم الأحيان إلى صيغ جماعية تؤدى - فى النهاية - إلى تخليص المجتمع من خرافاته وأساطيره ، وتنقية الخطاب الدينى من الإسرائيليات والبدع التي يتشبث بها المتشدقون الذين جاءت ثقافتهم الأساسية من كتب الأرصفة بعيداً عن المنهج الصحيح للدين الإسلامى .

وقد عمد الرقيب - دائماً - فى مصادرة الأعمال الأدبية والإبداعية والفكرية إلى ثلاثة أسباب أسماها بـ " مجاوزة الخط الأحمر " وربطها بالمحرمات الثلاثة - على حد تعبيره - وهى : " الدين والسياسة والجنس "

والرقابة - بصفتها أداة للمنع والحجب - لا تلجأ فى كثير من الأحيان إلى صيغ تأويلية تبرهن على صدق دعواها ، نظراً لأنها - عادة - ما تأخذ بظواهر الأمور دون تعمق أو إعمال نظر .

والرقيب عادة - لا يدقق فى العمل الذى يريد مصادرته ، بل يتعامل مع النص " بشكل إنتقائى " لا يعتمد على رؤية منهجية بحثية كلية تعتمد على

بعد منطقي وسوسيولوجي يملك حق تأويل وتفجير البنية المجازية التخيلية لذلك النص .

وهنا تولد ما يمكن أن أسميه بـ " الرقابة العمياء " التي لا تستطيع أن تميز بين الغث والسمين ، ولا بين الإبداع الزائف والإبداع الحقيقي .

وتدعى تلك الرقابة أنها تدافع عن الإبداع وحرية الفكر مستغله الوعي المغيب للجماهير بفعل القهر الاجتماعي السياسي وتخلخل البناء الطبقي لتهميش الأغلبية مقابل تصعيد الأقلية أو بمعنى أدق الانتصار للفرد ضد الجماعة ، وهذا ما أوجد - من وجهة نظري - المجتمع النخبوي بتجلياته المختلفة .

ويأتى هذا الكتاب كمحاولة أولى لرصد أهم قضايا المصادرة في العالم العربي خلال السنوات العشرين الماضية مع إضفاء البعد التاريخي ودلالته على اللحظة الراهنة ، مؤكداً أن جراح اليوم نتيجة طبيعية لأشواك الماضي ، وأن ما تحصده الثقافة العربية على امتداد الوطن العربي من هزائم متتالية من قوى التخلف والرجعية وأصحاب الفكر الشعبوي الطائفي وميليشيات الغدر والإرهاب والتي تترصد وتتوعد كل فكر خلاق يحاول بناء عالم جديد قائم على الجدال النظري ، كل ذلك يأتي كمحصلة أخيرة للوعي الناقص للتعامل مع مفهوم الحداثة ، التي نظر إليها المثقفون العرب من الخارج دون أن يتعمقوا في البنية التحتية للثقافة العربية ، تاركين المجال لطيور الظلام تعريد كيفما شاءت في عقول الشباب الذين راحوا يبحثون عن بديل للوطن المقهور الذي أهدى لهم البطالة والعجز على طبق من حديد صديء ، فوجدوا أنفسهم أمام دعاة التكفير وجماعات التأسلم الذين ملؤوا عقولهم بأفكار شيطانية ، مما جعل رصاصات الإرهاب تعلق فوق أصوات التنوير ، وامتلات الشوارع بدماء الضحايا من الرجال والنساء والأطفال ، وأيضا المفكرين أمثال د - فرج فوده ود - حسين مروة ومهدى عامل من لبنان " والفكر اليمني جار الله عمر الأمين العام للحزب الإشتراكي اليمني ، وكذلك أكثر من ١٥٠ صحفيا جزائريا حصدتهم يد الإرهاب والنزاعات

وقد حاولت قدر الإمكان فى هذا الكتاب أن يكون أقرب إلى الصورة التوضيحية لجمل قضايا المصادرة وما يتعلق بها ، بما يتضمنه من مقالات وحوارات وشهادات لمدعين عاشوا الأزمة واكتووا بناؤها فى ظل محاكم التفتيش الجديدة التى تذكرنا بالعصور الوسطى - رغم أن ذلك قياس مع الفارق - فبالرغم من دعاوى الحداثة وما بعدها والعودة وغيرها من المصطلحات فإن هذه العصور الوسطى التى نصفها - دائما - بالتخلف كانت أكثر هدوءا ، وحالات المصادرة لم تكن بهذا الكم أو تلك الفظاعة والشراسة ، فالآن نحن معرضون - يوميا - لقراءة أخبار هنا أو هناك عن كتب مصادرة وكتاب يمثلون أمام القضاء فى قضية رأى ، وأساتذة جامعيين يفصلون من الجامعة بسبب وقوفهم ضد أباطرة المحسوية والنفاق العلمى . . وهكذا نجد أنفسنا فى النهاية أمام تراجيديا مأساوية كتبت بإحكام شديد من قبل فئة تتاجر بحرية الكتابة من أجل أغراض سياسية تكمن وراء خطابها التكفيرى البغيض . .

ولكن هؤلاء عليهم أن يعلموا بأنه لو كان للمصادرة يوم فإن للحرية أعواما قادمة .

عيد عبد الحليم

القاهرة فى إبريل ٢٠٠٥